بين الوحي والجنون

شخصية مسز كران المزدوجة

لجاك أندراوس

« تلك هي اماثر الوحي بل قل ذلك هو الالهام بعينه والاّ فكيف يتمكّن شخص عادي لم تتعدّ درجة تحصيله المدرسة الابتدائية من اخراج قطع فنية خالدة . . . . »

« تلك هي دلائل الجنون او قل ذلك هو الهذيان بعينه ، بل كيف يمكن ان يستقي من قامة المجانين شخص يتكلم بما لا يفهم وينطق وهو غائب الحس والشعور . . . . . »

ولكن لا . مهلاً ورويداً فكلا الرأيين متطرف وفي كلاهما مغالاة وبين هذين الطرفين — بين الوحي والجنون — سنلتمس الحل الملائم لشخصية مسز كران العجيبة . . . .

***

قد تتنازع العواطف احياناً في شخص ما وتثور مزبدة حانقة بعضها على بعض فاذا تعذّر على ذلك الشخص التوفيق بين تلك العواطف الحانقة بالتي هي احسن ، كان لابدّ لهُ من ان يصاب باضطرابات داخلية نفسانية شديدة تفقده توازنه العقلي ، وعندها لا بدّ من احد امرين : إمّا أن تكبت تلك العواطف الجامحة وتظل قوة خفية فعالة في تسيير دفة حياته العاطفية ، وإمّا ان تصح كل طائفة من هذه العواطف المتخاصمة محوراً تدور حولهُ شخصية جديدة منفصلة نوعاً ما عن الشخصية الاساسية . وهذا ما يُسميه علماء السيكولوجيا بالشخصية المزدوجة — مدار بحثنا الآن . . . .

لو وجّهنا أشعة الفكر الثاقب الى شاشة العقل الواعي وتفحصنا ما يحدث هناك بين الآونة والاخرى لرأينا أنّ مجرى العقل الطبيعي يشبه التيار الدائم في الصور السينماتوغرافية ، كما ان التيار الفجائي الناتج عن تطع الفلم واستبداله بآخر يشبه تماماً ما يحدث في مجرى الشخصية المزدوجة من انتقال سريع بين الشخصيتين ، الاساسية والمحدثة . فاذا فحصنا ما يجري في العقل الواعي عند ما يشرق الفرد في التفكير في عمل حسابي مثلاً ، رأينا ان العقل الواعي عندها يتألف من

مجموعة الطرق العقلية المختلفة التي تؤدي الى حلّ تلك المسألة . ولكنّ تلك الصورة تمر بعد برهة وجيزة أو ينسحب العمل الحسابي من ميدان العقل الواعي ليفسح مجالاً للتفكير مثلاً في الحملة التي ستقام في اليوم المقبل — ولذا نرى أنّ العمل الحسابي والجملة على الرغم مما هما عليه من التفاوت وعدم القرابة قد انشئت بينهما صلة مكّنت العقل الواعي من عبور تلك الهوة السحيقة بين الاثنين كما يتم العقل بجراء الطبيعي الدائم التغير ، والمتماسك الاجزاء

ولكنّ هذا الوصف قد لا ينطبق دائماً على مجرى العقل الطبيعي كما أنهُ لا يصدق أبداً على ذوي الشخصيات المزدوجة حيث نجد المستر هيد Hyde مثلاً والدكتور جاكيل Jekyll يتنازعان السيادة والسيطرة على مقدرات الشخصية . ولكن يجب أن لا ننسى قط أنّ هذه الانقسامات مهما ظهرت غريبة ومعقدة لأول وهلة فهي ليست سوى نوع مجسم لما يحدث في شخصية كل فرد عادي . لنفرض مثلاً أنك تعزف على البيانو قطعة موسيقية . فان كنت بارعاً في العزف يمكنك وانت تعزف أن تلاحق سلسلة من الافكار المستقلة — ففي حالة كهذه لا نرى في العقل مجرى افكار متتابع من قسمين مستقلين الواحد عن الآخر ، وهذا بلا ريب نوع من الشخصية المزدوجة يختلف عن ذلك بكونه انقساماً موقتاً وجزئياً تحت ادارة الشخص ومشيئته

من مدة وجيزة ظهرت على مسرح الوجود شخصية غريبة الأطوار عجيبة المزاج أقلّ ما يقال فيها انها من (فلتات) الطبيعة . تلك هي مسز كران [1] Mrs. Curran صاحبة القصة المحزنة Sorry Tale وتلكا Telka وغيرها من القطع الادبية الخالدة والتي قالت عن أحد مؤلفاتها مجلة الصن اليوركية The New York Sun « هي قصة وايم الحق لو نسبت الى جورج اليوت لما خجلت قط في انتسابها اليها ». كما أن مجلة التيمز اليوركية The New York Times قد كتبت عن القصة المحزنة ما يلي : « لو دققت في هذه القصة مليا وتفحصتها جيداً لا بدّ لك عند الفراغ منها من الاقرار بأن كاتبها استاذ متضلع من فنه » ثم إصغ ما يقولهُ عن الرواية المذكورة المستر ريدي Reedy محرر المرور Mirror والنقادة المفكر :— « في الحقيقة ان هذه القصة هي اعظم قطعة أدبية قرأتها — ومن دون تردد أقر بأنها من عجائب العالم الادبي » . ومن الغريب أن تحصيل مسز كران لم يتعد المدرسة الابتدائية وليس لها اي اختبار بالكتابة كما ان مطالعتها ضيقة النطاق جداً . فهي لم تفكر قط في ان تكون مؤلفة او كاتبة ولكن مطمحها الوحيد كان اجادة الغناء. فلقد كان صوتها رخيماً فاعتنت كل الاعتناء بتهذيبه وتدريبه الى ان انبثقت شخصيتها الثانية التي

(١) لقد اعتمد واضع هذا المقال على مباحث برنارد هارت Bernard Hart وتشارلز كوري Charles Cory في هذه الناحية ومن أراد زيادة الايضاح عن حياة مسز كران فليراجع
Readings in General Psychology-Robinson & Robinson
او Psychological Review العدد السادس والعشرين لسنة ١٩١٩

دعتها «باتنس وورث» P. W.: Patience Worth . وقد كان ولا يزال لظهور هذه الشخصية الغريبة سرٌّ مجهول لا يدرك كنهه احد حتى ولا مسز كران نفسها ولكنه من الخطأ الفادح أن نستنتج أن مسز كران ليست سوى امرأة حمقاء بلهاء فهي على الضد من ذلك على جانب كبير من الذكاء والفطنة . على انك لو قابلتها وحادثتها لما وجدت نفسك في حضرة ذلك الفيلسوف المفكر والعبقري الفنان الذي كتب «القصة الحزينة» وغيرها من الآثار الادبية الخالدة

***

تظهر مسز كران قبل الكتابة بمظهر لا يدل ابداً على ما يتمخض فيها من فن أدبي رائع وبنتة تبتدىء بالكتابة وتسيرفيها بسرعة فائقة جداً حتى انها كتبت مرة وهي في أصعب مواقفها القصصية ما ينيف عن خمسة آلاف كلة في مجرة واحدة . ثم ان في قالبها الادبي صفة فنية خاصة فهي تعكس حياة الامم الغابرة واخلاقهم بدقة ولباقة تدهش القارىء فيخيل اليه أن المؤلف واسع الاطلاع متضلع من التاريخ القديم مع ان درجة تحصيلها كما قلت سابقاً لم تتعدَّ المدرسة الابتدائية . فلحمتها الكبرى تلكا Telka التي لم تطبع لحد الآن ترتكز على وصف الحياة الانكليزية القديمة في أوائل القرن الثامن عشر ولكنها كتبت بلغة لا تستطيع تمييزها عن لغة ذلك العصر مع انهُ قد بطل استعمالها اليوم . فلا يمكننا أمام هذه الحقيقة إلا أن ندهش لكيفية كتابة ملحمة شعرية في القرن العشرين بلغة مهجورة كهذه ، وبقلم كاتب معاصر . كما أننا لا بد لنا بعد درسنا هذه الشخصية الغريبة من ان نقف مكتوفي الايدي امام مقدرتها الخارقة فهي مثلاً تستطيع عند ما يطلب منها أن تستميد أيَّ مقطع من قصصها بعد كتابته بزمن طويل . . او أنها بعد أن تنتهي من قصة ما تبتدىء رأساً في كتابة قصة أخرى قد تتنقل بها الوف السنين وملايين الاميال

وهكذا نجد في P. W. الشخصية الجديدة تفوقاً على الشخصية الاساسية وهذا يعني ان الاعتقاد السائد عند البعض في أن العقل الباطن Subconscious مكمن الافكار الوضيعة والمنحطة يجب ان يعدَّل وأن يفسر على اساس الانقسام العقلي . فان لم يكن الانقسام متساوياً وكان الشطر الاكبر بجانب الشخصية الجديدة كما حدث لمسز كران أفضى ذلك الى خلق شخصية ثانية تمتاز كثيراً عن الشخصية الاساسية لا بل قد تصل الى درجة العبقرية والعكس بالعكس

نعم . . . إننا نقر بعبقرية P. W. ونبوغها ونرى أن هذه الحادثة توضح جليًّا ما يقدر ان يصل اليه العقل اذا ما تحرر من قيود الحياة الاجتماعية . كما اننا لا ننكر أن هذا الانقسام في شخصية مسز كران قد كان بركة وخيراً إذ أنه خلق فيها شخصية جديدة مستقلة كل الاستقلال

عن الشخصية الاساسية ولذا فقد اصبحت تلك الشخصية الثانية في عزلة تامة عما يحدث في محيطها . او بكلمة اخرى — قد ادّى انقسام الشخصية الى التخصص ، فقد اسند الى مسز P. W كل ما يؤول الى تحقيق رغبات الجسم ومقتضيات الحياة الاجتماعية بينما تفرغت P. W بكليتها بعد ان تحررت من عقال الحس للاعمال العقلية فقط فهي تعيش في طمأنينة وهدوء وتتغذى من عالم التصور والخيال لا تصل اليها ضوضاء الحياة ولا تؤثر فيها مصائب الدهر — او قل هي جدول هادىء يترقرق من اعالي دروة جبل المقربة سائراً في مجرى معين فتتوحد القوة حتى اذا ما وصل الى اسفل آدار بقوته الجبارة محرك العقل وهذا بدوره يحوّل تلك القوى الكامنة الى آراء صائبة وأفكار عمرانية جليلة وقطع ادبية خالدة . . .

ولكن على العقل الواعي ان يقسم انتباهه بين عالم الخيال وعالم الحس او بين الشخصية القديمة والشخصية الحديثة ، وانه لمن الصعب جداً في بعض الاحايين فصل عالم الحس عن عالم الخيال ولذا نجد ان اللحظات التفكيرية التي ترتفع فيها P. W الى سماء الخلود قصيرة المدى اذا ما قيست بشخصيتها الاصلية مصحوبة بقوى هائلة تمنع جنود الحس من اقتحام عالم الخيال . . . وعلى اجنحة ذلك الخيال الخصب تستطيع P. W ان تنتقل بافكارها فوق قيود الزمان والمكان . . . .

ولا بدّ للقارىء اللبيب عند الانتهاء من قراءة هذه الكلمة الوجيزة من ان يتساءل ، كيف تستطيع امرأة كهذه ان تقدم على كتابة آثار ادبية كتلك ؟ أكان ذلك الهاماً ، أم ان ذلك ضرب من الجنون ؟؟

***

إن علماء السيكولوجيا لم يتمكنوا حتى الآن من حل هذه المعضلة بحسب الطرق العلمية البحتة ولذا علينا ان نؤجل الحكم الى ان تدرس تلك الشخصية العجيبة على ضوء التمحيص والاختبار الطبين . وانه والحق يقال ليصعب جداً على المتعمق في العلوم الطبيعية بعد ان طبع بقالب النزعة العلمية القائلة بأن لكل نتيجة سبباً والتي تدين بدين التجارب المبنية على اسس علمية ثابتة ، أقول انهُ لمن الصعب عليه ان يعتقد بان للالهام دُخلاً في المسألة — كما انهُ يستبعد كثيراً من ان يكون ذلك ضرباً من الجنون عند ما نرى بان الشخصيتين متزنتان لا خلل فيهما ولا اعوجاج

واما من أين اتت هذه المعلومات الشائقة وكيف تجمعت ولماذا اختارت تلك الطريق دون الطرق الاخرى للظهور ، كل هذه اسئلة جديرة بالنظر وهي مما لا يستطيع علماء اليوم الاجابة عنهُ فنحن باننظار حلٍّ علمي لهذه الشخصية العجيبة نحن باننظاره

« حلقة السيكولوجيا — الجامعة الاميركية — بيروت »